أهالي الأسرى: «دواعش» السياسة قتلوا أبناءنا

بعد ثلاث سنوات من خطف «داعش» لجنودٍ في الجيش اللبناني، تلقّى ذووهم الخبر السيّئ. التقوا أمس داخل خيمتهم في رياض الصلح، تجمعهم المصيبة والحزن على من ذهب يفتدي سيادة بلدٍ، فتركته دولته يلقى حتفه

ليا القزي

حصل ذلك قبل ثلاث سنوات، ومن المُمكن أن يتكرّر في تاريخ آخر، ما دام هناك دولة تُصّر على «إذلال» عسكرييها، وذويهم، وشعباً بأكمله. تتلكأ عن القيام بواجباتها، فيُطوى ملف خطف ثمانية عسكريين من الجيش اللبناني (بعد أن التحق العنصر التاسع بـ«داعش»)، في آب 2014، على صفحةٍ سوداء. إعلان اللواء عباس إبراهيم أمس «انتشال رفات 6 أشخاص يُعتقد أنّهم الجنود، لأنهم يلبسون «رينجر» عسكرياً»، كان تأكيداً لمعلوماتٍ لم يُرد أحدٌ أن يُصدّقها. الموت رخيصٌ. يغسل كلّ المسؤولين السياسيين والعسكريين والأمنيين أيديهم من تحمّل مسؤوليته. ولكن، عمّ العسكري محمد يوسف يُقرّر أن يكشفهم. «أنا رجل لا أخاف إلاّ من ربّي»، يقول والغضب يشقّ صدره. «حزب الله يُهبّط بلداً، ولا يتخلّى عن أسير. الجيش يفعل ذلك أيضاً، ولكن فليبتعدوا عنه». يتّهم السياسيين بأنّهم هم الدواعش الحقيقيون. لو فقط «تركوا الجيش يُكمل مهمته. العسكري إن وضع الإرهابي هدفاً نُصب عينيه، لكان هرب». الرجل محقونٌ إلى درجة انتفخت أوداجه. «مقهورون لأنّه كانت هناك فرصة أن يُخرجوا أحد العسكريين على قيد الحياة. ماذا كانوا ينتظرون؟»، يقول قبل أن يُضيف: «الحمد لله. لنا الشرف أن يكون لنا شهيد».

خالد حسن؛ علي الحاج حسن؛ سيف ذبيان؛ علي المصري؛ حسين عمار؛ محمد يوسف؛ مصطفى وهبي؛ إبراهيم مغيط، بكاهم ذووهم أمس في الخيمة التي نصبوها بالقرب من ساحة رياض الصلح. على الرغم من أنّ المدير العام للأمن العام أعلن أنّه «لا يمكن أن نُثبت (هوية الرفات) حتى تظهر نتيجة الفحوص العلمية».

جميلة، شقيقة العسكري مصطفى وهبي، كانت تتّكئ على عمودٍ حين كان إبراهيم يُلقي كلمته. الهرج والمرج بين الاعلاميين والمصورين منعاها من سماع تصريحه. تنظر بعينين فارغتين ووجهٍ شاحب تعلوه ابتسامة خفيفة تُعبّر عن أمل طفيف بأن يكون مصطفى حياً. ولكن، ما إن يصلها الخبر حتّى تنهار. هي التي كانت تُصّر، خلال الساعات التي سبقت وصول إبراهيم، على أنّه «لن نُصدّق أيّ خبر سوى الذي يأتي من جهة رسمية. حرام عليهم. في اليوم نموت مئة مرّة». إلى جانبها تقف أمّها التي تنده لمصطفى: «ثلاث سنوات وأنا أنتظرك يا أمّي». تلطم بيديها على صدرها. أمامها، على جذع شجرة، عُلّقت صورة مريم العذراء. لم تطلب منها «سوى أن يعود مصطفى سالماً، لا أن أتسلمه ميتاً مثل إخوته. يا أمّي يا مصطفى، ماذا سأقول لوالدك؟».

أرواح حزينة لأجساد أعياها التعب. حسين يوسف الذي بات «مرجعاً» لملف العسكريين المختطفين، خانته قواه بعد أن ناضل لثلاث سنوات. وَقْع الخبر عليه كان قاسياً، فأراح رأسه على كتف شقيقة المخطوف المُحرر لدى «النصرة» العسكري جورج خوري. هي التي ذاقت الأسى سابقاً قبل أن يُحرّر شقيقها، ساعدت حسين حتّى لا يُغمى عليه. تصرخ شقيقة أحد العسكريين الثمانية بأعلى صوتها: «حرقولي قلبي»، فيما الرجل على كُرسّيه المُتحرك يمنع المصورين من دخول الخيمة، «اتركوا هذه اللحظة للأهالي وحدهم». كأن هؤلاء قد ضاقوا ذرعاً بالمصورين الذين ما انفكوا يلتقطون الصور للأمهات الحزينات، فهُدّدوا بتكسير الكاميرات إن لم يخرجوا من الخيمة. إضافة إلى من يبكي ولده، كان بين أقرباء العسكريين من يدعو إلى «إبادة الإرهابيين في أرضهم وليس تأمين معبر آمن لهم. كان يجب على السيّد حسن (نصرالله) أن يحرقهم واحداً واحداً». تكرّر هذا الأمر على لسان كثيرين، يريدون «الاقتصاص لدماء الشهداء».

أيام بطيئة مرّت على الأهالي الذين لم يكونوا يملكون معلومة عن أبنائهم. تركتهم الدولة عرضةً للشائعات، تماماً كما تركت أبناءهم بعد أن منعت الجيش من إكمال مهمته في آب 2014. يوم أمس أيضاً، لم يأت من يستطلع أحوالهم، بعد أن فُجعوا بخبر استشهاد العسكريين عبر وسائل الإعلام. اتصل بعضهم ببعض، وبدأوا يتجمعون في خيمهم في ساحة رياض الصلح، منذ ظهر أمس. والدة حسين عمّار تشكو تعامل الإعلام مع الموضوع، «ما في شي رسمي، وما بيسكتوا». تقول ذلك على وقع أنين والدة محمد يوسف، المُمدّدة على فراشها، «يا ربّي لم أطلب منك سوى أن ترّد لي هذا الصبي. يا ربّي، أرجوك... خبراً يُبرّد قلبي».

الخيمة الأساسية التي كان يتجمع داخلها الأهالي تحولت إلى ما يُشبه «مجلس العزاء». تكسر صمت الأهالي كلمات المتضامنين الذين أتوا لمواساة عائلات العسكريين. «الجبل» حسين يوسف كان يتنقل بين الناس. التشاؤم يُسيطر عليه، من دون أن يفقد رباطة جأشه. «لدينا إيمان بأنّ الله يخلق لكل إنسان قدراً لا يستطيع أن يبعد عنه. ونحن في النتيجة عبيدٌ عند ربّ العالمين». حتّى الثانية الأخيرة، «يبقى لدينا أمل». ومهما تكن نتيجة الفحوصات، «أفتخر بشقيقيّ محمد العسكريين. ولا أندم للحظة أنّ ابني انتمى إلى الجيش ووقع في هذه الأزمة».

والد العسكري محمد يوسف بعد تبلغه نبأ العثور على جثث العسكريين (مروان بوحيدر)

والأمن العام إلى المكان المحدد (تبيّن أنه بالقرب من المكان الذي سبق أن حدّده الموقوف لدى الأمن العام)، حيث انتشلت الجثث الثماني أمس.

الوساطة والمفاوضات

وحول رواية المفاوضات والوساطة، تنقل المصادر أنّ المفاوضات بين حزب الله وتنظيم «داعش» في القلمون تولاها شقيق «أمير التنظيم» موفق الجربان المشهور بـ«أبو السوس»، المدعو عمر الجربان، إضافة الى ابن خالته ووسطاء آخرين بينهم كويتي. كذلك استعان الأمن العام بأحد المحكومين في سجن رومية أحمد مرعي الذي لعب دوراً في الوساطة مع أفراد من قيادة التنظيم قبل بداية المعركة. وكان البند الأول الذي وضعه الحزب لإتمام الصفقة كشف مصير العسكريين المخطوفين وتسليم جثثهم، إضافة إلى تسليم جثامين 4 شهداء من حزب الله مدفونين في وادي ميرا في القلمون السوري، وشهيدين وأسير لدى «داعش» في البادية السورية، فيما تمحورت مطالب قيادة التنظيم حول الضمانات لخروج مسلّحيه. ورغم أنّ المعلومات تؤكد أن قيادة التنظيم في الرقة ترفض بشكل قاطع أيّ تفاوض، إلا أنّ الجربان اتّخذ قراره بالتفاوض لضمان سلامته. وتكشف المعلومات أنّ مسلحي «داعش» الذين سلّموا أنفسهم لحزب الله تلقّوا ضمانات بـ«تسوية أوضاع» بعد موافقة الدولة السورية. و«تسوية الأوضاع» تعني تنظيف سجلهم والسماح لهم بالالتحاق بعائلاتهم في أماكن سيطرة النظام، أسوة بالمسلحين الذين سلّموا أنفسهم في بداية الأحداث. ورغم استعداد 17 حافلة لنقل مسلحي التنظيم البالغ عددهم 350 مسلحاً إلى محافظة البوكمال، إلا أنّ مصادر تكشف أنّ بعض المسلحين، ومن بينهم أبو السوس، طلبوا نقلهم إلى مناطق لا تسيطر عليها «الدولة الإسلامية». وفي هذا السياق، تؤكد مصادر مقرّبة من مسلحي الجرود أنّ معظم الذين يحملون عقيدة التنظيم المتشدد قُتلوا في المعركة أو أجهز عليهم أبو السوس. أما الباقون فمعظمهم من قطّاع الطرق والمهربين وأبناء القصير الذين كانوا في صفوف «الجيش الحرّ».

والمقرّر أكثر، رؤية رئيس الحكومة سعد الحريري مصافحاً إياه باسماً، وإلى جانبه في مؤتمر صحافي، بعد جولته الأخيرة في جرود عرسال، التي حرّرتها المقاومة من إرهابيّي «أبو عجينة» ذاتهم.

كيف يمكن للحريري أن يثبت للبنانيين أنه نادم على ما تورّط فيه وتيّاره، ومعه حزب القوات اللبنانية والحزب التقدمي الاشتراكي وآخرون، يوم احتضنوا «جبهة النصرة» و«داعش»، وسوّقوا للإرهابيين إعلامياً وغطّوهم أمنيّاً ودعموهم بالمال و«الحليب» و«البطانيات»، وبقوا حتى الأمس القريب يراهنون على قلب النظام في سوريا وتغيير المعادلة في لبنان، و«أبو عجينة» نجم إطلالة الحريري؟

■■■

يوم كوّم إرهابيّو جرود عرسال جنود الجيش اللبناني الجرحى في شاحنة في شباط 2013، غطّى فريق 14 آذار «الحادثة» كأنها فعلٌ عابر، وكان بينهم الشهيدان النقيب بيار بشعلاني والرقيب أوّل إبراهيم زهرمان. يومها، كان الجيش اللبناني ممنوعاً من توقيف مسلّح واحد من «المعارضين»، بضغطٍ من الأميركيين والفرنسيين، وتآمر 14 آذار. قيل لقائد الجيش السابق جان قهوجي، وبموافقة الرئيس السابق ميشال سليمان، فـ«ليحم الجيش نفسه، لكن اتركوهم. ممنوع ضبط الحدود». ثمّ يوم أُوقف الإرهابي عماد جمعة، مطلع آب 2014، بطلب أميركي، بذريعة أنه يحضّر «عملاً إرهابياً» ضخماً، لم تأخذ السلطة السياسية، والرئيس تمام سلام وحكومته، بالتحذيرات التي وصلت عن عمل انتقامي ضدّ الجيش والقوى الأمنية في عرسال. تُرك الجنود لحتفهم وأسرهم، وتُرك «أبو عجينة» و«الشيخ» مصطفى الحجيري، «أبو طاقية!!»، لخداعهم، ووعدهم بترك الأسرى، حالما يغادر المسلّحون البلدة إلى الجرود. مذنب من قَبل بهذه الخدعة، لكنّ سلام، ومن خلفه الحريري، مذنبان أكثر، حين ضغطا على قهوجي لوقف المعركة. ومن لا يذكر انزعاج رئيس الحكومة وقتذاك من استخدام الجيش لراجمات الصواريخ من النبي عثمان واللبوة، ضد المسلّحين في الجرود؟

■■■

انتهت لعبة الإرهاب. وصار الجميع في «خندق» واحد. طبعاً، لم يعد باستطاعة فارس سعيد وإيلي ماروني وعاصم عراجي وأنطوان سعد وطوني أبو خاطر وزياد القادري وشانت جنجنيان وأمين وهبي وإدي أبي اللمع أن يحجّوا إلى عرسال كما حجّوا في الماضي، لتغطيّة إرهابيي الجرود بحجّة دعم البلدة في وجه «بطش» حزب الله. يبحث هؤلاء وغيرهم عن أقرب خندق «ضد الإرهاب» ليرموا أنفسهم فيه، علّ اللبنانيين يفقدون ذاكرتهم. لكن «غوغل» لا ينسى.

هل تذكرون أحمد الأسير؟ ومن غطّاه ومن حماه؟ هذه حكاية لوحدها. وشادي المولوي أيضاً. «يتحامقون» في السياسة والأمن، ويدفع الجيش والمقاومة واللبنانيون الثمن. ثمّ لا يعترفون. ويرمون أنفسهم في الخندق الجديد.

■■■

الآن، استفاق الأميركيون والبريطانيون على دعم الجيش بالأبراج والتحصينات والسلاح، الذي يكفي لقتال الداخل طبعاً، ولا يساوي «سنتاً» ضدّ إسرائيل. لأن هناك من كان سبّاقاً لبذل التضحيات وقتال «العدو» حيث يبني قواعده، في القصير وحمص والقلمون والقنيطرة والزبداني وريف دمشق وغيرها. لكن «14 آذار»، أو ما تبقّى منها، تبني رهاناً جديداً على ما يبدو. يزايدون على المقاومة بإنجاز الجيش، وكأن هناك فريقين، سيتنافسان في المستقبل، أو يتقاتلان، على أفضلية الدور وشرعيّته. واهمون.

(أ ف ب)